١٢ - أومن بالإنسان !

للأستاذ عبد المنعم خلاف

التحرر من التاريخ — نحن غير البائدين — تلاميذنا أصح علما بالطبيعة من أرسطو — العلوم والفنون ليست تحفاً تقتنى منفصلة عن النفس — لا بد من قلوب حديثة — من جرائر التاريخ — الانسان يصنع أقداره — إستطراد إلى مشكلة القدر — إلى المتطيرين هنا من غير تقوسهم — الآن فقط وجد الحق أدوات الدعوة لتصحيح الأفكار عن الحياة — عباب التاريخ يجرف الطفولة النضرة مع الجيف القذرة ! — لا مفر من عزل الطفولة لتصحيح أفكارها — مناقضات بين ما في الشوارع وما في الجامعات — صورة من دراستنا الحالية للتاريخ — طبائع مدلسة ليست بنت زمانها — ما يستهلكه الخير وما يستهلكه الشر — هل مضت الحاجة إلى دور الغرائز في خدمة الحياة ؟ — حرب الآلهة

طالما ألححت بقلمي على التاريخ : هذا الجدار الماثل ... هذا السد القوي ... هذا السجن المتيد ... لأحطمه وأنقذ نفسي من جوه المسمّم الخانق !

وطالما قلت : ما دام هذا الماضي القاصر الجاهل الخرف الوحشي يحمله الإنسان في أوعيته وأعصابه إلى الحاضر ، فهو دائماً في ضلاله القديم ، كما يعيش حامل الميكروبات الضارة دائماً في أمراض ونكسات .

والحقيقة التي يجب أن توضع نصب العيون الآن هي أن هذا الإنسان المصري هو غير الإنسان البائد بلا شك ! هو غيره في علمه وإدراكه للطبيعة وتذليله لعقبات الحياة واضطلاعه بأدوات تحقيق الاحتياجات وتفتيحه لكنوز الأرزاق والأقوات

فكيف يرضى أن يحمل ذات قلبه القديم وغرائزه كما كانت وأن يحمل غشاوات القرون الأولى ليعيش بها في عصر الانكشاف والظهور والقدرة الفائقة ؟ !

كيف يرضى من ملك زمام اليابس والبحر والجو وذرع الأرض بالطول والعرض ، ونبش كنوزها أن يعيش بأساليب الذي كان لا يعرف غير طريق القرية أو النجع أو الجزيرة التي يعيش فيها ؟

إن تلاميذ المدارس الابتدائية أصح علماً عن الأرض والطبيعة من سقراط وكونفوشيوس وأرسطو وابن سينا والفارابي وغيرهم من حكماء القدماء ؛ فكيف ترضى الإنسانية الحالية أن تعيش حياتها النفسية بأساليب جهلاء عصورهم ؟ !

إن التاريخ النفسي للحياة الإنسانية ينبغي أن يدرس بعين غريبة عنه ناقدة له في شك وارتياب . فما هو إلا سجل جهاد الناس في سبيل وصولهم إلى حقائق هذا العصر الحالي . فما يليق أن تؤخذ مرحلة من مراحله مخطاً يطمئن الناس إليه بعقولهم ؛ لأن مراحله السابقة كانت مراحل موضعية ضيقة خاصة بأمة ما من أمم . ولكن أمر أمم الناس الآن أمر جماعة توشك أن تتقارب أهدافها وتتشابك مصالحها وتشتجر اشتجاراً لا خلاص لفروعها منه أبت أم كرهت

هل من المعقول أن نلبس ملابس الحياة الحديثة على الأجساد ثم لا نغير ملابس النفس ؟ أنكون قروداً وببغاوات تحكي قضايا العلم الطبيعي بألسنتها وظواهرها ولا تمثله قلوبها ونوازعها ؟

هل يكفي من العلم أن يقتنى في الحوافظ والذاكرات غير ممزوج ولا مدمج في الأعصاب والأحاسيس والانفعالات ، بل يوضع في الرءوس كما توضع التحف والدمى على الرفوف والمناضد للزينة والخيلاء والبيع والشراء عند الحاجة ؟

إني أرى العلم ينبغي له أن يكون في كياننا كالماء في أعواد الشجر الحي لا يقف تسربه إليه وتفريع حياته إلا إذا جف وأحطب ومات ... فلا شجر بدون ماء ...

إن عملية عظيمة في داخل الحياة النفسية الإنسانية تنتظر إجراءها لبناء قلوب حديثة تتلاءم مع الأفكار الحديثة !

***

ومن آثار التاريخ في الحياة المصرية هذا الخلاف العنيف بين الأديان بعد ما سطعت شمس الله الواحد ... وبعد ما أدرك العقل التناسق والانسجام والتوافق بين قوانين الطبيعة مما لا يمكن أن يكون إلا بإدارة يد واحدة !

ومن آثاره كذلك فيها أننا لا نزال نخضع لمنطق الأمم التي كانت تعيش متحاجزة في سدود وتخوم تفصل بين عقولها وأخلاقها ومرافقها ، وتجعل الدنيا دنيوات ، والإنسانية الواحدة أنواعاً متباعدة ، وتجعل من اختلاف الأجناس والألوان واللغات اختلافاً أصيلاً جوهرياً بين الطبائع الإنسانية يبيح هذه المدارة الفاجرة المزرية المخزية للعمران ، ويحمل على المبالغة في البطش والطغيان ونسيان الصفات المشتركة بين بني الإنسان

ومن آثاره كذلك أن أكثر الناس لم يدرك بعد مدى الانتقال العظيم والترق السريع والتفاوت البعيد بين الحياة قبل القرن العشرين والحياة فيه ؛ ولذلك لا يزالون يضمرون فى أنفسهم اعتقادات متشائمة فى الإنسان ومستقبله ، ويدينون فى الحياة بدين السخط وإطلاق النرائر الخطيرة والآراء التافهة التى تجعل الإنسان يعبر الحياة بدون أن يجتهد فى ملء نفسه بأسرار التكوين ، وفى إضافة كشف أو اختراع أو منفعة إلى ميراث الحياة الإنسانية ... وليس هناك شىء أضر على الحياة الإنسانية من نزعة التشاؤم والتبرم والسخط على حاضر الإنسان ومستقبله !

ومن آثاره كذلك أننا رضينا أن يعيش أكثرنا جاهلاً أمياً لا يفقه مبادئ العلم والحياة التى فى رءوس العلماء مع أن نمو تلك الأسرار يتغير ويتقدم كل صباح ومساء ... وكأننا بذلك وأدنا هؤلاء الأحياء ودفناهم كما كانت تفعل جاهلية العرب بموءودة الأجساد ... وكان هذا الإهمال منا بمثابة فعل من رأى أهله يموتون ظمأ واحتراقاً ، وهو على علم بمنبع ماء غزير يطفئ غلتهم ولوعتهم ويحيى نفوسهم ولكنه لا يسعى إلى إنقاذهم ...

ومن آثاره كذلك أننا نعيش فى ذهول عما يحيط بحياة الإنسان الآن من كنوز تتفتح وأعاجيب تخترع ، فترى الناشئ منا ينشأ بين القطارات والسيارات والطيارات والراديو والتليفون والنواسات والفونوغراف والفوتوغراف والسينما وغير أولئك ، ثم يجهل أمرها وتركيبها ولا يدرى عنها شيئاً ولا يكلف نفسه سؤال أحد عن نبئها العظيم ... كأن ذلك شىء تافه أو أمر بدهى لا يحتاج إلى فكر شديد وتعجب بالغ !

ومن آثاره أننا برغم إدراكنا الآن كثرة الأقوات وكفاية الأرزاق كثرة وكفاية تشبعان حاجات الإنسانية جميعها لو وزعت توزيعاً معقولاً بدون احتكار وتحكم وإتلاف لجانب من المحصول فى سبيل الاحتفاظ بالأسعار المرتفعة ... لا نزال نطيع الجشع والطمع ونعمى دواعى العدالة والرأفة بالطبقة المحتاجة المجهودة !

ومن آثاره أننا لا نزال نغطى عجزنا وكسلنا بالاستسلام لما نسميه « الأقدار » ، مع أن مفتاح الأقدار بأيدينا ، ومع أننا نرى أننا نصنع أغلب أقدارنا ، ومع أن دائرة الإيمان بالأقدار فى الدين لا تتعدى منطقة الصبر على المصائب والكوارث التى تأتى إلينا بدون حيلة أو خيرة منا ، ومنطقة الرضا بما نحصل عليه بعد الجهاد ...

وهنا مكان استطراد إلى مشكلة الأقدار لا بأس أن نرسل فيه بعض الحديث :

هناك أقدار نريد أن تتحقق ، وهى أقدار الخير والسعادة ، وهذه موقفنا منها يجب أن يكون كما يأتى :

أن نسعى جهدنا للتمهيد لتحقيقها بالأخذ بأسبابها التى تهدينا تجاربنا إلى أنها عوامل جالبات لما نسعى إليه . فإن تحقق ما نبغى فذاك ، وإن لم يتحقق — وهذا قليل نادر — علمنا أن الإرادة العليا المسيطرة على وجودنا لها غاية غير غايتنا فى تلك المسألة التى نسعى لتحقيقها . والإيمان بتلك الإرادة يقضى حينئذ بالإذعان والتسليم لقدرها العالى الذى لا حيلة معه

وهناك أقدار نريد ألا تتحقق ، وهى أقدار الشر والشقاء ، وهذه موقفنا منها يجب أن يكون كما يأتى :

أن نسعى جهدنا للتمهيد لدفعها بالأخذ بالأسباب التى تهدينا تجاربنا إلى أنها عوامل دافعات لما نخشاه ونتجنبه . فإن كان ما نبغى فذاك ، وإن لم يكن كان علينا كذلك الإذعان والتسليم للإرادة العليا .

تلك هى مشكلة الأقدار فى جانبيها . وفى كلا هذين الجانبين رأينا أن على الإنسان أن يقدم جهده فى التمهيد لها أو دفعها . فإذا وقف أمامها منتظراً مكتوف اليدين مشلول التفكير كان حرياً أن تأتى إليه أقدار الخير فلا ينتفع بها إذ لم يبذل لها جهداً من فكره وأمله ، وكان حرياً كذلك أن تنزل عليه أقدار الشر فلا يسعى لتخفيفها وأن يجزع منها جزع الذى يظن أنه كان فى مقدوره أن يدفعها ولكنه قصر فى ذلك ، فيظل ملوماً محسوراً ...

* * *

والحياة العملية ذات البراهين البريئة من الجدليات توحى إلينا بل تحدثنا بكلمات مقروءة مسموعة بريئة من غموض الرمز والإيماء أن الذى ينتظر أقداره بدون أن يسعى لجلبها أو دفعها لن تكون حياته إلا كحياة ذلك البدوى ساكن الصحراء الذى لا يعمل عملاً لجلب الماء ، وإنما هو ينتظر سقوطه عليه من السماء ، وطبيعى ألا تكون آماله بيده ، وأن يعيش حياته معرضاً لأخطار

الظمأ والجفاف معلق القلب مهدد العيش يتجدد قلقه كل سنة لأنه لم يملك من أسباب الحياة إلا بجبل بعيد هيهات أن يكون في يده دائماً ...

وأنى تكون حياة هذا البدوي من حياة بدوي آخر صمى حتى اهتدى إلى ضفاف نهر تملك منابعه بحوالب السحاب ، وتحلب الماء إليه جارياً ميسوراً ليده وأفواه دوابه وقطعانه ، ثم هو بعد ذلك يشق السواقي والقنوات ليصل منها الماء إلى كل بقرة بذرها!!

لا شك أن كليهما أخذ من مصدر واحد ، ولكن أحدهما حمل نفسه على العسرى ، والآخر حملها على اليسرى ... وشتان ما بينهما !

فلينهض الراقدون على آذانهم في الشرق الإسلامي مستعلين في صغار لعوامل الشقاء والحرمان ، حاسبين أن أحوالهم ضربة لازبة حتى يأتيهم آت من غير أنفسهم ينفخ في الصور ، فإذا الأرض حولهم جيوش وجحافل ، ومصانع ومعامل ، ومساجد ومعابد ، وحقول وجنات وعيون ، وإذا هم — بقدرة قادر ! — آلهة في الأرض يحكمون !

لينهضوا وليحرروا أنفسهم من قيود التاريخ النفسي الذي انحدر إليهم من الجاهليات فهم يعيشون به في الماضي وإن كانت أجسادهم تلبس أثواب القرن العشرين ...

ولتكن قوارع هذه الحرب أجراساً وأبواقاً تجمعهم وتدفعهم إلى السير مع قافلة سريعة المراكب ، متلاطمة المواكب ، غليظة الأثقال ، حاشدة جبال الحديد والفولاذ ، والقوى العارمة المجنونة التي يقول قائلها : « أنا القدر ! أنا القدر ! يا بني البشر ! »

* * *

هل لنا أن نزعم أن الحق وصل إلى نفوس أكثر الناس فأدركوا صدقه وجماله ثم مع ذلك رفضوه ، وحينئذ يحق لنا أن نتشاءم في مستقبل الإنسان ؟

أؤكد أنه لم يصل في عصر ما من عصور التاريخ إلا إلى القليل من الناس . وإلى الآن لم تقم دعوة إلى الحق الواضح في الطبيعة بدون أن توضع في طريقها أغشية وعقبات وعوقات تحجبه وتمنع الناس من إدراكه

والآن ، وقد تيسرت أدوات الدعوة وأدوات الإقناع وأدوات التربية يجب بدء دعوة ...

وإن في الناس لخيراً كثيراً جداً أعظم مما يتضح من النسمة التي نجدها فيهم الآن ...

والدليل على ذلك نجاح أمم الشمال في أوربا خلقياً ، فقد أثرت فيهم التربية حتى أوشكت بلادهم أن تخلو من السجون والجرائم والخيانة حيث الثقة بالنفس الإنسانية وطيدة هناك

إن أدوات سعة النظر في الحياة واتجاهاتها موفورة الآن لأغلب سكان الأرض ؛ ولكنهم مأخوذون عن ذلك بجرائر التاريخ . وكان من الواجب بعد العلم الغزير أن يوجد الفكر الهادئ والقلب الكبير الذي نضج وطاب ؛ ولكن عباب التاريخ وسيوله لا تزال تجرف الطفولة والبذور مع الجيف والقش والغثاء ... وتلقي الجميع إلى المصب الذي تلتقي فيه الأخلاط والضلالات التي تركها أبناء الجاهلة الأولون ...

فلا مفر من فصل البذور والطفولة وعزلها عن مجرى سيل التاريخ — وإنشائها بأيد غير ملوثة إنشاء يرضى به هذا الزمان وعلومه وفنونه ، ويؤهل الإنسانية لتلك الخلافة الواسعة المتعاونة في جهاد الطبيعة واستغلال بركاتها وثمراتها .

ولا مفر من تصحيح الفكرة عن الحياة وتوجيهها إلى الإيمان بها كرحلة ممتعة أتاحها القدر لمن يخرج من العدم ، فيجب صرفها في العمل والفرجة والاطلاع على ما يمكن الاطلاع عليه من آفاقها

ولا مفر من تحويل عبقرية الفكر إلى عبقرية القلب والخلق والجسم . فالعلم والفن يجب صقل النفس بهما وإشراب الجسم إياها وإخراجه على مقتضاها بحيث لا تتخلف حياة الجسم وقواه وحركاته عن المدى الذي وصل إليه الفكر ... وبحيث لا يتخلف ما في الشارع والحقل عما في مدارس الفنون والعلوم والتجارة والزراعة وما إليها حتى تكون حياة الجماعة صورة ومظهراً صادقاً لحياة الجامعات والأندية الثقافية ، ولا يكون في الأمة مفارقات ومناقضات بين حياة الفكر وحياة الواقع .

ولا مفر من عمل كل إنسان على أن يدرك نفسه ويستغرق في التفكير في حياته وحياة الإنسانية ويتيقظ لتلك القوة والقدرة التي تتسلط بها الإنسانية على القوى العمياء الجبارة وتسخرها في خدمتها

وما الإنسان بدون يقظة للمعنى الفائق والروح السامي الذى فى حياته إلا جسد يختلج ويضطرب فى ذهول وبلادة ، ويحيا هكذا حياة مغناطيسية آلية

***

ولكى ندرك جرائر التاريخ على العقول وأثره فى تدليس الحاضر وإفساده وتزوير النفوس سأعيد عليك حديث صورة لا تجهلها عن طرق دراسته على ألسنة العجائز وفى المدارس ومجالس القصص :

يتفتح عقل الناشئ منا فتلقنه عجائز بيته وشيوخ قومه ومعلمو مدرسته تاريخ قوميته وتاريخ الإنسانية بأغلاطه ونقائصه ومحاولات العصور القاصرة فى فهم الحياة وجهاد الإنسانية فى شق طريقها الأول بين الصخور والمتاهات والعقبات . فما يكاد عقل الناشئ يصل إلى دور الحكم والموازنة حتى يكون قد تطبع بما وعى وأصابه ثقل التخمة وحيرة الامتلاء والتبلبل

ذلك لأن التاريخ لا يدرس على أنه محاولات أولية من الإنسان فيها أخطاء كثيرة ؛ فيجب الحكم عليها حكم دور الرشد على دور القصور ؛ ولكنه يدرس وعليه طابع التقديس والإعجاب بالأقدمين والاعتزاز بهم فى مغالاة وتعصب ، وبخاصة تاريخ القوميات والجنسيات

وكان من كبرى نتائج ذلك أن عاش كثير من الماضى السيء فى الحاضر . بل وجدنا جماعات تفر من الحاضر لتعيش فى الماضى وترى أنه كان الحياة .. ! وتعدم الناس بما فعلت الجدود وقالوا إنا على آثارهم مقتدون

فلم يفتح أبناء العصور المختلفة عيونهم على حياتهم فى زمانهم بل فتحوها على الماضى وعاشوا به فى الحاضر ، وظهر أثر ذلك فى الافتتان بهوامش الحياة والعكوف على دراسة سطوحها وترك دراسة أصول الحياة وعلومها الطبيعية والتجريبية التى تبقى لها نتائج دائمة تسلم إلى نتائج أخرى فى سلم الترقى والتطور

وقد لاقى أكثر الناس الحياة بطباع مدلسة ليست بنت زمانها ، وإنما هى بنت الماضى السحيق ، وحملوا معهم فى رحلة العصور خرافات ووثنيات وسخافات احتفظوا بها حتى فى القرن العشرين ، ووضعوها حواجز وعوائق فى طريق الحياة الحديثة ذات المعجزات والنبوات الساطعة التى لا تحتمل جدلاً أو مخرقة !

وكان من نتائج ذلك أن وجد المصلحون فى كل عصر ركاماً من الغباوات والجهالات توضع فى طريق دعواتهم إلى الإصلاح والعلم وفتوح الذكاء ونور البصيرة ...

ليس قبيحاً جداً بالطفل أن يعترك مع إخوته على شىء يريده لنفسه ويريدونه لأنفسهم ، فيتصايحوا ويتضاربوا ويحطموا ما أمامهم ؛ لأن الطفل يعيش بالغرائز ، فهو أنانى ضيق التفكير لا يدرى أن أباه يملك الكثير ، ولا يفهم فضيلة الإيثار إلا بعد التمييز والتدريب

ولكن ما بال الأمم التى رأت خيرات الله تملأ فجاج الأرض تتقاتل على البحر الزاخر والحقول المرعة والجو الواسع ؟ إن ذلك من أخلاق الطفولة وضيق آفاقها وتحكم الغرائز فى حياتها ، وهذه صفات وجدت لها فى مخلفات التاريخ مبررات وحججاً وتأريثاً !

ومن العجائب أنهم يدمرون ما يسعون إليه من الغنى والثروة حين تثور غرائزهم ! وإن الحقد والشر والطمع لتستنفد وتهلك من مال الأمم الأثرة الجشعة ، ومن بنفعا الهم الفياض ما لا يمكن الخير والسلام والإحسان والتعاطف والتفاهم أن يستهلكه أو يستهلك عشر معشاره !!

ونظرة واحدة إلى النفقات اليومية للأمم المتحاربة الآن تكفى فى البرهنة على هذا وعلى أن الإنسانية ما دامت مصروفة عن طاعة الحق والعدالة والحسنى ، إلى تحكيم الغرائز الدنيا والانحدار فى مجرى التاريخ ، فسوف تظل هكذا تعمر لتدمر، وتعلم لتجهل ، وتتقدم لتتأخر

وكأن المقصود بحياة الإنسان إذا استمر على هذا هو تحقيق مشتهيات الغرائز وإظهار عبقريات النفس البشرية فى التخريب بعد التكوين : فهى طوراً تبنى وتعيش فى صفات البناء وأخلاقه، وطوراً تهدم وتعيش فى أخلاق الهدم وصفاته، لتدرك معالم الضدين المتقابلين الأبديين : الخير والشر ...

ولكن إن صح هذا كتعليل لحياة الشر فى الماضى حين كانت الحياة محتاجة إلى دوافع الغرائز لتدريب الإنسان فى طفولته على ما تهيئه له الأقدار فى مستقبله وحمله على الاقتحام والكشف وتفتيق الحيلة ، وحين كانت نتائج ثورات غرائزه محدودة ضيقة